شعر المعارك الإسلامية زمن رسول الله ﷺ[1]

كانت المعارك الإسلامية من أهم العوامل التي مكنت للدعوة ونشر الدين وأدت إلي ازدهار الشعر في عصر النبوة ، وقد ظهر إبان هذه المعارك الطابع الديني في الشعر الإسلامي .

وقد استطاع الشعر في تلك الفترة أن يواكب تلك المعارك ويرد علي مزاعم المشركين ويفندها ويمضي مع هذه الوقائع فيسجل كل ما دار فيها. لقد كان سلاحا من أسلحتها ونغمة عالية من نغماتها لا غناء عنه، ولا عجب في ذلك فالشعر ديوان العرب وسجلهم الحافل بكل ما يدور في حياتهم، ومن الأجدر أن يكون سجلا دقيقا لتلك الغزوات الإسلامية العظيمة التي غيرت وجه التاريخ .

والحق أن الشعر في صدر الإسلام لم يترك معركة ولا غزوة إلا تحدث عنها ، وكان سهاما نافذة في صدور الأعداء ونارا مصبوبة علي هاماتهم وسيوفا مصلتة علي رقابهم .

لقد استطاع الشعر أن يخلد الانتصارات ويعبئ النفوس ويثير الحماس في سبيل الدعوة وحماية الدين الحنيف والدفاع عن الحق.

ولعل أهم المعارك التي شارك فيها الشعر زمن رسول اللّه ﷺ ما يأتي :

أولاً : معركة بدر الكبري (سنة ٢ هـ) :

كانت معركة بدر الكبري النصر الأول للمسلمين، وبهذا النصر أعز اللّه الإسلام واشتد ساعد المسلمين، وفي هذه المعركة ذاق كفار قريش طعم الذل وتجرعوا مرارة الهزيمة ، ورجعت قريش تاركة فرسانها مصروعين في الربي والشعاب ، وقد نشط الشعر فوصف المعركة وصفا دقيقاً ، وتغني بالنصر وهجا الأعداء وعيرهم بالهزيمة وطبع بطابع ديني .

وإذا التمسنا شيئا من هذا الأثر الديني في الشعر الذي قيل في هذه المعركة يمكن أن نرى قصيدة حسان التي يذكر فيها أصحاب القليب، ويذكر عاقبة المشركين إذ يقول :

---

(١) انظر هذا الموضوع " شعر المعارك الإسلامية زمن رسول الله ﷺ " / د . غريب محمد علي / مجلة الأزهر عدد مايو ١٩٨٨ م

وخبر بالذي لا عيب فيه بصدق غير إخبار الكذوب
بما صنع المليك غداة بدر لنا في المشركين من النصيب
يناديهم رسول الله لما قذفناهم كباكب في القليب
ألم تجدوا حديثي كان حقا وأمر الله يأخذ بالقلوب
فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا صدقت وكنت ذا رأي مصيب (١)

(١)

ويظهر هذا الأثر الإسلامي في شعر كعب بن مالك حيث يقول في الرد علي ضرار ابن الخطاب :

عجت لأمر الله والله قادر علي ما أراد ليس لله قاهر
قضي يوم بدر أن نلاقي معشرا بغوا وسبيل البغي بالناس جائر
فلما لقيناهم وكل مجاهد لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لا رب غيره وأن رسول الله بالحق ظاهر(٢)

فالجهاد والتوحيد والإيمان بقضاء الله وقدره، كلها معان إسلامية خالصة. والحق أن كعبا لم يقف عند ذلك بل أخذ يتحدث عما أصاب المشركين من ذل وهزيمة وأوضح أنهم قتلوا بسبب كفرهم بالله وإشراكهم به ، وأنهم سيكونون وقود النار في يوم القيامة حيث يقول :

فكب أبو جهل صريعا لوجهه وعتبه قد غادرنه وهو عاثر
فأمسوا وقود النار في مستقرها وكل كفور في جهنم صائر
لأمر أراد الله أن يهلكوا به وليس لأمر حمه الله زاجر (٣)

وقد تحدث الشعر في هذه المعركة عن فضل الله علي المؤمنين وتسديد خطاهم ، ونصرهم علي المشركين رغم قلة عدد المسلمين وكثرة المشركين. وقد استطاع حسان أن يصوغ هذه المعاني في أبيات له متأثرا بقول الله تعالي" كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين " (٤) إذ يقول :

فما نخشي بحول الله قوما وإن كثروا وأجمعت الزحوف

---

(١) ديوان حسان بن ثابت / تحقيق د. سيد حنفي حسنين / صـ١٣٤-١٣٦ / ط دار المعارف سنة ١٩٨٣ – وانظر سيرة ابن هشام / تحقيق : مصطفي السقا وآخرين / القسم الأول صـ ٦٤٠ / ط البابي الحلبي سنة ١٩٥٥ مع ملاحظة وجود اختلاف في رواية بعض الكلمات .
(٢) ديوان كعب بن مالك / تحقيق مجيد طراد/ صـ٤٦-٤٧ / ط دار ص (بيروت / ط أولي سنة ١٩٩٧.
(٣) ديوان كعب بن مالك / صـ٤٧.
(٤) سورة /البقرة / آية ٢٤٩ .

إذا مـــا ألبـــوا جمعـــا علينـــــا كـــفـــانـــــا حـــدهـــم رب رءوف
سمونـــا يـــوم بـــدر بالعوالـــــي سراعا مـــــا تضعضعنـــا الحتـــوف
لقينـــاهـــم بها لمـــا سمـــونـــــا ونحـــــن عصابـــة وهم ألـــوف[1]

ومهما يكن من أمر فإن الشعر الذي قيل في يوم بدر كان موفقا في تصوير المعركة ولكن لم يبلغ به التوفيق أن يدل الدلالة الكاملة لسورة الآنفال فالمعاني التي تناولها الشعر كانت عامة ، ولم يصل ذلك الشعر إلي قمة المعاني التي جاءت في هذه السورة الكريمة .

ثانياً : معركة أحد " سنة ٣هـ :

بعد موقعة بدر جاءت قريش لتثأر لنفسها بقضها وقضيضها ، بخيلها ورجلها ، تجلب علي المسلمين جلبا ، ودارت رحي المعركة عند جبل أحد ، وكان ما كان من أمر هذا اليوم فهو يوم للمشركين علي المسلمين، إنه يوم محنه وبلاء فقد استشهد فيه عدد غير قليل من المسلمين منهم أسد اللّه حمزة ابن عبد المطلب عم النبي ﷺ، فذكر الشعر ذلك وبكي القتلي ورثى الشهداء ورد علي شعر المشركين فحينما افتخر هبيرة بن أبي وهب بقصيدة يقول فيها :

سقنا كنانـــة من أطراف ذي يمن عرض البـــلاد علي ما كان يزجيـــها
قالت كنانة : أنى تذهبـــون بنـــا قلنا النخيل فأمـــوها ومـــن فـــيها [2]
(٢)

رد عليه حسان قائلا :

سقتم كنانـــة جهلا من عداوتكـــم إلي الرسول فجنـــد الله مخـــزيـــها
أورد تموها حياض الموت ضاحية فالنار موعدها والقتـــــل لاقيـــــها
هـــلا اعتبرتم بخيل الله إذ لقيـــت أهل القليب ومن أردينه فـــيـــها [3]
(٣)

---

(١) ديوان حسان / صـــ٣٩١.
(٢) سيرة ابن هشام / القسم الثاني / صـــ١٣٠ .
(٣) ديوان حسان، ص٢٠٥ وفي سيرة ابن هشام، تاني كلمة سفاهتكم " في البيت الأول بدلاً من عداوتكم " كما كما تأتي كلمة " قتلت " في البيت الثالث بدلاً من " لقيت، وكلمة ألقينه " بدلا من أردنيه"، انظر ســيرة ابــن

والحق أن النقائض التي دارت حول حرب أحد كثيرة، ولعل ذلك راجع إلي أن نصر قريش قد أثلج صدور شعرائها، فلقد عدوا هذه الغزوة انتقاما شافيا لهزيمتهم في بدر، فراحوا يرسلون القوافي في التغني بهذا النصر والشماتة بالمسلمين.

ولكن شعراء المدينة كانوا لهم بالمرصاد، يجيبون عليهم وينقضون شعرهم، مؤكدين أن الهزيمة لن تنال من قوتهم أو تفت في عضدهم وإصرارهم علي دحر الشرك.

ومن تلك المناقضات أبيات لأبي سفيان بن حرب يتشفي فيها بالمسلمين ويتباهي بقتل من قتل وعلي رأسهم حمزة بن عبد المطلب، يقول أبو سفيان:

وسلي الذي قد كان في النفس أنني قتلت من النجار كل نجيب
ومن هاشم قرما كريما ومصعبا وكان لدى الهيجاء غير هيوب
ولو أنني لم أشف نفسي منهم لكانت شجا في القلب ذات ندوب (١)

فأجابه حسان قائلا:

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم ولست لزور قلته بمصيب
أتعجب أن أقصدت حمزة منهم نجيبا وقد سميته بنجيب
ألم يقتلوا عمرا وعتبة وابنه وشيبة والحجاج وابن حبيب (٢)

وتظهر المعاني الدينية عند كعب بن مالك في قصيدة يستغرق أكثرها ذكر الحرب وحسن البلاء والصبر يرد فيها علي هبيرة بن أبي وهب قائلا:

وفينا رسول الله نتبع أمره إذا قال فينا القول لا نتطلع
وقال رسول الله لما بدوا لنا ذروا عنكم هول المنيات واطمعوا
وكونوا كمن يشري الحياة تقربا إلي ملك يحيا لديه ويرجع

هشام، القسم الثاني، ص١٣١وكذلك في السيرة النبوية لابن اسحق، الجزء٢، ص١٦/ ط١، ١٩٩٩أخبار اليوم.

(١) سيرة ابن هشام / ج٢ / صـ٧٠.

(٢) ديوان حسان / صـ٣٧٢

ضربناهم حتى تركنا سراتهم كأنهم بالقاع خشب مصرع
شددنا بحول الله والنصر شدة عليكم وأطراف الآسنة شرع[1]

ويأخذ كعب في مجادلة الكافرين في قصيدة أخري مجادلة من كان علي بينة، وذلك حق ، فقد كان ذا عقيدة ثابتة، ودين راسخ، وقد ذهب يوضح للكافرين أن الحرب سجال والأيام دول ، وأن الغلبة للدين الإسلامي لا شك في ذلك حيث يقول في الرد علي عمرو بن العاص وضرار بن الخطاب :

إن تقتلونا فدين الحق فطرتنا والقتل في الحق عند الله تفضيل
وإن تروا أمرنا في رأيكم سفها فرأي من خالف الإسلام تضليل
تلقاكم عصب حول النبي لهم مما يعدون للهيجا سرابيل
كنا نؤمل أخراكم فأعجلكم منا فوارس لا عزل ولا ميل [2]

ولم ينس الشعراء رثاء الأبطال الذين استشهدوا في سبيل الحق وضحوا بأنفسهم من أجل إعلاء كلمة التوحيد وعلي رأس هؤلاء الأبطال حمزة بن عبد المطلب . والذي يرثيه حسان قائلا :

فإن تذكروا قتلي وحمزة منهم قتيل ثوي لله وهو مطيع
فإن جنان الخلد منزله بها وأمر الذي يقضي الأمور سريع
وقتلاكم في النار أفضل رزقهم حميم معا في جوفها وضريع [3]

ويرثيه عبد اللّه بن رواحه قائلا :

بكت عيني وحق لها بكاها وما يغني البكاء ولا العويل
علي أسد الإله غداة قالوا أحمزة ذاكم الرجل القتيل
أصيب المسلمون به جميعا هناك وقد أصيب به الرسول

---

(١) ديوان كعب بن مالك ، صـ ٦٠ – ٦١ .
(٢) ديوان كعب بن مالك ، صـ ٨٤ /٨٦.
انظر سيرة ابن اسحاق /ج٢ ، صـ ٢٧ ، ٢٨ .
(٣) ديوان حسان ، صـ ٩٩ / ١٠٠.

عليك سلام ربك في جنان مخالطها نعيم لا يزول[1]
يزول[1]

وبهذه الطريقة صور الشعراء أحداث أحد ، وقد ظهرت المعاني الإسلامية في صورة ترديد لآيات وتراكيب قرآنية ، وتمثل الشعر أغراضا عديدة كالفخر والهجاء والمناقضات والرثاء إلي جانب ذلك .

ثالثاً : بدر الثانية (شعبان سنة ٤هـ) :

كانت هذه الغزوة في السنة الرابعة للهجرة ، وكان الموعد بدرا ، ولكن الكفار لم يفوا بما وعدوا ، فكفي الله المؤمنين القتال ، وفي ذلك يقول عبد الله بن رواحة مقرعا المشركين وعلي رأسهم أبو سفيان الذي أخلف الموعد ولم يأت إلي بدر :

وعدنا أبا سفيان بدرا فلم نجد لميعاده صدقا وما كان وافيا
فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا لأبت ذميما وافتقدت المواليا
تركنا به أوصال عتبة وابنه وعمرا أبا جهل تركناه ثاويا
فإني وإن عنفتموني لقائل فدي لرسول الله أهلي وماليا [2]
(٢)

رابعاً : الخندق وقريظة " سنة ٥هـ " :

كان حصار الخندق سببا في إجلاء بني قريظة من المدينة والقضاء علي ذلك الشر المجاور ومعروف أن نفرا من اليهود من بني النضير وبني وائل كانوا قد ألبوا الأحزاب وحرضوا قريشا وغطفان علي حرب الرسولﷺ .

---

(١) ديون عبد الله بن رواحة /صـ١٣٢ / تحقيق د. وليد قصاب / ط ثانية سنة ١٩٨٨ / دار الضياء – عمان عمان – الأردن – وتنسب هذه القصدية إلي كعب بن مالك ، انظر ديوان كعب ،صـ٨١.
(٢) ديوان عبد الله بن رواحه / صـ١٣٨، وانظر سيرة ابن هشام القسم الثاني / صـ٢١٠ / ٢١١.

وكانت قريظة قد أبرمت عهدا مع النبي ﷺ لكنها نقضته وخرجت عليه .

ولما كان نصيب الأحزاب الفشل كان نصيب بني قريظة القتل والذل، وقد قيل في الخندق شعر كثير من كلا الجانبين ، يقول ضرار بن الخطاب :

فلولا خندق كانوا لديه لدمرنا عليهم أجمعينا
ولكن حال دونهم وكانوا به من خوفنا متعوذينا (١)

فيجيبه كعب بن مالك قائلا :

نقاتل معشرا ظلموا وعقوا وكانوا بالعداوة مرصدينا
نعاجلهم إذا نهضوا إلينا بضرب يعجل المتسرعينا
ويعلم أهل مكة حين ساروا وأحزاب أتوا متحزبينا
بأن الله ليس له شريك وأن الله مولى المؤمنينا(٢)

ولحسان بن ثابت قصائد ومقطعات في بني قريظة يقرعهم ويعيرهم بما أصابهم، ويبين لهم أنهم ضلوا وبغوا حينما فعلوا فعلتهم فكان هذا جزاءهم، يقول في إحدي مقطوعاته :

تعاهد معشر ولوا بكفر وليس لهم ببلدتهم نصير
هم أوتوا الكتاب فضيعوه فهمْ عمي من التوراة بور(٣)
بور(٣)

ويقول في مقطوعة أخري :

لقد لقيت قريظة ما ساءها وما وجدت لذل من نصير

---

(١) ديوان ضرار بن الخطاب / صـ٩١ / تحقيق . فاروق إسليم / ط أولي سنة ١٩٩٦ ،صادر بيروت .
(٢) ديوان كعب بن مالك ، صـ١٠٦ . انظر شيئا من هذه المناقضات في سيرة ابن هشام القسم الثاني صـ٢٥٤ وما بعدها
(٣) ديوان حسان ، صـ٢٥٣. و فى رواية ابن هشام القسم الثاني صـ ٢٧٢ .
تفاقد معشر نصروا قريشا و ليس لهم ببلدتهم نصير

أصـــابهـمْ بـلاء كان فيـهم سوي ما قـد أصاب بنـي النضيـر
غـداة أتـاهمْ يـهوي إليهـم رسـول الله كالقمـر المنيـر
تركنـاهم ومـا ظفـروا بشـئ كالعبيـر[1] دمـاؤهـم علـهم كالعبيـر[1]

وهكذا استطاع الشعر أن يساير المعركة ويجابه الخصوم ويذكر بسالة المؤمنين وإخلاصهم لرسول الله ﷺ، لكنه لم يتناول كل ما تناولته الآيات الكريمة في أمر الآحزاب من سورة الآحزاب.

خامساً : غزوة مؤته (سنة ٨ هـ):

كانت هذه الغزوة في جمادي الأولي من السنة الثامنة من الهجرة ، وكان الرسول ﷺ قد جهز سرية إلي مؤتة قوامها ثلاثة آلاف رجل لسبر قوة الدفاع الرومي البيزنطي في الشام وكان يدرك عليه السلام أهمية هذه الغزوة والخطر الذي يمكن أن تتعرض له هذه الحملة فجعل لها ثلاثة أمراء هم : زيد بن حارثة فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب فإن أصيب فعبد الله بن رواحة ، واتفق أن هرقل إمبراطور الروم كان في البلقاء شرق الأردن راجعا من قتال الفرس في مائة ألف وانضم إليه مائة ألف من عرب الشام من بني طيئ وجذام وبهراء وبلي وكان المسلمون قد أصبحوا في "معان " ولم يبق لهم مفر من القتال فانحازوا إلي قرية "مؤتة"، ولكن القوتين لم تكونا متكافئتين فاستشهد عدد كبير من المسلمين كما استشهد القواد الثلاثة فأجمع المسلمون علي خالد بن الوليد الذي انسحب بمن بقي معه من الجيش، وفي أثناء غزوة مؤتة قال عبد الله بن رواحة :

جلبنـا الخيـل من أجأ وفـرع تغـر مـن الحشـيش لها العكـوم
أقامت ليلتين علـي معـان فأعقب بعـد فتـرتـها جمـوم[2] جمـوم[2]

(١) ديوان حسان /صـ٢٤٥ .
(٢) ديوان عبد الله بن رواحه ، صـ١٤٩.

وقال عندما استشهد زيد بن حارثه وجعفر بن أبي طالب :

أقسمت يا نفس لتنزلنه
طائعة أولا لتكرهنه
مالي أراك تكرهين الجنة
قد طالما قد كنت مطمئنة
جعفر ما أطيب ريح الجنة (١)

وقال عندما قطعت أصبعه :

هل أنت إلا إصبع دميت
وفي سبيل الله ما لقيت
يانفس إلا تقتلي تموتي
إن تسلمي اليوم فلن تفوتي(٢)

وقام كعب بن مالك يرثي شهداء مؤتة رثاء حارا مفعما بالحزن والشجن واللوعة والحسرة إذ يقول :

نام العيون ودمع عينك يهمل سحا كما وكف الطباب المخضل
في ليلة وردت علي همومها طورا أحن وتارة أتململ
وجدا علي النفر الذين تتابعوا يوما بمؤتة أسندوا لم ينقلوا
صلي الإله عليهم من فتية وسقى عظامهم الغمام المسبل(٣)

سادسا : فتح مكة (سنة ٨ هـ) :

نقضت قريش العهد الذي كان بينها وبين الرسول ﷺ بما استحلت من خزاعة التي كانت في عقده ﷺ، ولذا خرج عليه السلام إلي مكة بعد أن استنجد به عمرو بن سالم الخزاعي الذي قال في شعر له :

يا رب إني ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا
هم بيتونا بالوتير هجدا وقتلونا ركعا وسجدا
فانصر هداك الله نصرا أعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا(١)

---

(١) ديوان عبد الله بن رواحه / صـ١٥٣.
(٢) ديوان عبد الله بن رواحه / صـ١٥٤ .
(٣) ديوان كعب بن مالك / ص٨٧ – ٨٨ ، وانظر سيرة ابن هشام / القسم الثاني ،صـ٣٨٥.

وكان الفتح العظيم والنصر المبين فكانت قصيدة حسان التي تعد أهم وأجود شعر قيل في تلك المناسبة والتي يتسهلها بقوله :

عفت ذات الأصابع فالجواء إلي عذراء منزلها خلاء[٢]

وقد وفق حسان كل التوفيق في تصوير قوة المسلمين وعزتهم ونصر الله لهم ، وذكر قومه وإبراز المحامد الإسلامية فيهم فهم جند الله الذين لهم في كل يوم جهاد بالسيف أو جهاد باللسان ، يقول:

فإما تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم يعين الله فيه من يشاء
وقال الله قد يسرت جندا هم الأنصار عرضتها اللقاء
لنا في كل يوم من معد قتال أو سباب أو هجاء
فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء[٣]

ومن الملاحظ أن الشعر الذي قيل في الفتح قليل إذا قيس بما قيل في المعارك السابقة ولعل السبب في ذلك أن التحدي الذي كان يجده الشعراء المسلمون من شعراء قريش قد انتفي في هذه المناسبة .

سابعاً : يوم حنين (بعد فتح مكة في السنة الثامنة) :

في العام الثامن من الهجرة سار بنو هوازن لقتال المسلمين، وانهزم المسلمون في بداية الأمر، ولكنهم حزبوا أمرهم وكروا علي هوازن فهزموهم هزيمة نكراء وقد روي البراء بن عازب قال : لما كان يوم حنين رأيت النبي ﷺ والعباس وأبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهما آخذان بلجام بغلته وهو يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

---

(١) العقد الفريد / جـ ٦ ، صـ ١٣٠.
(٢) ديوان حسان / صـ٧١.
(٣) ديوان حسان / صـ٧٤.

وقد عبر الشعر عن هذه المعركة تعبيرا صادقا ، ومن ذلك قول العباس عم النبي ﷺ :

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة وقد فر من قد فر عنه وأقشعوا
وعاشرنا لاقي الحمام بنفسه بما مسه في الله لا يتوجع [1]

ومن ذلك أيضاً قول العباس بن مرداس يصف ما كان من شأن المسلمين :

ويوم حنين حين سارت هوازن إلينا وضاقت بالنفوس الأضالع
أمام رسول الله يخفق فوقنا لواء كخذروف السحابة لامع
ولكن دين الله دين محمد رضينا به فيه الهدي والشرائع
أقام به بعد الضلاله أمرنا وليس لأمر حمه الله دافع [2]

ومن ذلك أيضا قول بجير بن زهير بن أبي سلمي :

لولا الإله وعبده وليتم حين استخف الرعب كل جبان
والله أكرمنا وأظهر ديننا وأعزنا بعبادة الرحمن
والله أهلكهم وفرق جمعهم وأذلهم بعبادة الشيطان [3]
الشيطان [3]

سيدنا أبو بكر رضي الله عنه شاعراً [4]

لم يعرف دارسو أدب صدر الإسلام لسيدنا أبي بكر إلا أشعارا قليلة متناثرة في بطون المصادر حتى ظهر ديوانه منذ فترة قريبة ، وبظهور هذا الديوان ينهض أبو بكر شاعرا بين شعراء صدر الإسلام . والحق أن وجود

---

(١) تفسير القرطبي/ جـ٥/ صـ ٢٩٣٧– وقد ثبيت في هذا الموقف أم سليم وكانت ممسكة بعيرا لأبي طلحة طلحة وفي يدها صخر، ولم ينهزم رسول الله صلي الله عليه وسلم ولا أحد ممن أحاطو به وهم عشرة رجال .

(٢) ديوان العباس بن مرادس، ص١٠٨/ تحقيق د. يحيي الجبوري/ ط١ سنة ١٩٩١– ط الرسالة بيروت .

(٣) سيرة ابن هشام/ القسم الثاني / صـ٤٥٩.

(٤) انظر هذا الموضوع بالتفصيل / شعر سيدنا أبي بكر " دراسة نصية " / د. غريب محمد علي / مجلة آداب المنيا / العدد ٤٩ سنة ٢٠٠٣ .